

الأصول العشرون

يقول الإمام البنا :

أيها الإخوان الصادقون

أركان بيعتنا عشرة فاحفظوها :

« الفهم ، والإخلاص ، والعمل ، والجهاد ، والتضحية ، والطاعة ، والثبات ، والتجرد ، والأخوة ، والثقة » .

أيها الأخ الصادق :

إنما أريد بالفهم :

أن توقن بأن فكرتنا « إسلامية صميمة » وأن تفهم الإسلام كما نفهمه ، فى حدود هذه الأصول العشرين الموجزة كل الإيجاز :

١ - الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة ، وهو خُلِقَ وقوة أو رحمة وعدالة ، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة ، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة ، سواءً بسواء .

٢ - والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم فى تعرف أحكام الإسلام، ويفهم القرآن طبقاً لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف ، ويُرجع فى فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات .

٣ - وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله فى قلب مَنْ يشاء من عباده ، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ، ولا تُعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه .

٤ - والتمايم والرقي والودع والرملُ والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب، وكل ما كان من هذا الباب منكرٌ تجب محاربتة « إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة » .

٥ - ورأى الإمام ونائبه فيما لا نص فيه ، وفيما يحتمل وجوهاً عدة وفى المصالح المرسله ، معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية . وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات . والأصل فى العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعانى ، وفى العاديات الالتفات إلى الأسرار والحكم والمقاصد .

٦ - وكل أحد يؤخذ من كلامه ويُترك إلا المعصوم ﷺ ، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقاً للكتاب والسنة قبلناه ، وإلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع ، ولكننا لا نعرض للأشخاص - فيما اختلف فيه - بطعن أو تحجيج ، ونكلهم إلى نياتهم ، وقد أفضوا إلى ما قدموا .

٧ - ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر فى أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين ، ويحسن به مع هذا الاتباع أن يجتهد ما استطاع فى تعرف أدلته ، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح مَنْ أرشده وكفايته . وأن يستكمل نقصه العلمى إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر .

٨ - والخلاف الفقهى فى الفروع لا يكون سبباً للتفرق فى الدين ، ولا يؤدى إلى خصومة ولا بغضاء ، ولكل مجتهد أجره ، ولا مانع من التحقيق العلمى النزيه فى مسائل الخلاف فى ظل الحب فى الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة ، من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب .

٩ - وكل مسألة لا يبنى عليها عمل ، فالخوض فيها من التكلف الذى نهيينا عنه شرعاً ، ومن ذلك : كثرة التفريعات للأحكام التى لم تقع ، والخوض فى معانى الآيات القرآنية الكريمة التى لم يصل إليها العلم بعد ، والكلام فى المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم ، وما شَجَرَ بينهم من خلاف ، ولكل منهم فضل صُحِبته وجزاء نيَّته ، وفى التأول مندوحة .

١ - معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام ، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يليق بذلك من التشابه ، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل ، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء ؛ ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ (١) .

١١ - وكل بدعة فى دين الله لا أصل لها - استحسنتها الناس بأهوائهم ، سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه - ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التى لا تؤدى إلى ما هو شر منها .

١٢ - والبدعة الإضافية والتُرْكِيَّة والالتزام فى العبادات المطلقة خلاف فقهى، لكل فيه رأيه ؛ ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان .

١٣ - ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عُرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله تبارك وتعالى ، والأولياء هم المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٢) والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً فى حياتهم أو بعد مماتهم فضلاً عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم .

١٤ - وزيارة القبور أياً كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة ، ولكن الاستعانة بالمقبورين أياً كانوا ونداءهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن

(٢) يونس : ٦٣

(١) آل عمران : ٧

قُرْب أو بُعْد والنذر لهم وتشبيد القبور وسترها وإضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كباثر تحجب محاربتها ، ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة .

١٥ - والدعاء إذا قُرِنَ بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعى فى كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة .

١٦ - والعُرف الخاطئ لا يغيّر حقائق الألفاظ الشرعية ، بل يجب التأكد من حدود المعانى المقصود بها ، والوقوف عندها . كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظى فى كل نواحى الدنيا والدين ، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء .

١٧ - والعقيدة أساس العمل ، وعمل القلب أهم من عمل الجارحة ، وتحصيل الكمال فى كليهما مطلوب شرعاً ، وإن اختلفت مرتبتا الطلب .

١٨ - والإسلام يححر العقل ، ويحث على النظر فى الكون ، ويرفع قدر العلم والعلماء ، ويرحب بالصالح النافع من كل شئ . و « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها » .

١٩ - وقد يتناول كل من النظر الشرعى والنظر العقلى ما لا يدخل فى دائرة الآخر ، ولكنهما لن يختلفا فى القطعى . فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة ؛ ويؤوّل الظنى منهما ليتفق مع القطعى ، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار .

٢٠ - لا نكفر مسلماً أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاها وأدى الفرائض - برأى أو معصية - إلا إن أقر بكلمة الكفر ، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ، أو كذب صريح القرآن ، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال ، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر .

وإذا علم الأخ المسلم « دينه » فى هذه الأصول ، فقد عرف معنى هتافه دائماً: « القرآن دستورنا والرسول قدوتنا » . اهـ .

حسن البنا

* * *

لماذا قدّم الإمام البنا ركن « الفهم » ؟

قبل أن أبدأ فى شرح الأصول أجيب عن بعض الأسئلة التى تدور بخلد بعض الناس .

فقد يعن للقارئ هنا سؤال ، وهو : لماذا جعل الإمام البنا « الفهم » هو الركن الأول ، وقدمه على غيره من الأركان الأخرى ، كالإخلاص والعمل والتضحية والجهاد والشبات ؟

والواقع أن البنا - رضى الله عنه - كان موفقاً كل التوفيق فى هذا التقديم ، ولا غرو ، فقد كان الرجل بصيراً بـ « فقه الأولويات » وتقديم ما يستحق التقديم .

فما لا ريب فيه أن الفكرة تسبق الحركة ، وأن التصور الصحيح مقدمة ضرورية للتوجه الصحيح ، والعمل المستقيم . ولهذا كان العلم عندنا - نحن المسلمين - يسبق العمل ، بل العلم عندنا دليل الإيمان ، وطريق الاعتقاد السليم .

والإمام الغزالي وغيره من الصوفية الكبار يرون أن مقامات الدين ، والتخلق بأخلاق النبيين والصدّيقين لا يتم إلا بمعجون مركّب من ثلاثة أشياء : علم وحال وعمل ، فالعلم يورث الحال ، والحال يدفع إلى العمل .

وهو يشبه ما يقوله علماء النفس عن الإدراك والانفعال والنزوع ، وهى ثلاثة يفضى بعضها إلى بعض ، بمعنى أن الإنسان يعرف ويدرك ، فيتأثر وينفعل رَغَباً أو رَهَباً ، فينزع ويريد إيجاباً أو سلباً .

وهذا الترتيب واضح فى القرآن الكريم .

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ (١) .

والعطف بالفاء يفيد الترتيب والتعقيب ، أى أن العلم يترتب عليه الإيمان ، والإيمان يترتب عليه الإخبات ، فهم إذا علموا آمنوا ، وإذا آمنوا أختبوا .

ويقول تعالى : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُوا لِذَنْبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٢) .

فقدّم الأمر بالعلم ﴿ فاعلم ﴾ على الأمر بالعمل وهو الاستغفار .

قال الإمام البخارى فى كتاب العلم : « باب العلم قبل القول والعمل » لقوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ... ﴾ ... الآية فبدأ بالعلم ، قال الشراح : أراد أن العلم شرط فى صحة القول والعمل ، فلا يعتبران إلا به ، فهو متقدم عليهما ، لأنه مصحح للنية المصححة للعمل ، فنه المصنف على ذلك ، حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم : « إن العلم لا ينفع إلا بالعمل » تهوين أمر العلم والتساهل فى طلبه (٣) .

والخطاب فى الآية وإن كان للنبي ﷺ ، فهو متناول لأمته بلا نزاع .

وأخطر ما يصيب الإنسان أن تلتبس عليه الأمور ، فيرى الباطل حقاً ، والحق باطلاً ، والمعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة ، والبدعة سنة ، وأن يزین له سوء عمله فيراه حسناً ، وقد قال تعالى لرسوله : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ

(٢) محمد : ١٩

(١) الحج : ٥٤

(٣) صحيح البخارى مع فتح البارى ، ط . دار الفكر ، تصويراً عن ط . السلفية بإشراف الشيخ عبد العزيز بن باز ، وترقيم محمد فؤاد عبد الباقى .

بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ
أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١﴾ .

وقال عز وجل : ﴿ أَقْمَنَ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ، فَإِنِ اللَّهُ يُضِلُّ
مَنْ يَشَاءُ ... ﴾ (٢) .

ولهذا كان من الأدعية الماثورة : « اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ،
وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه » .

وجاء في بعض الأحاديث التحذير من زمن يصبح فيه المعروف منكراً ،
والمنكر معروفاً ، وهذا كله من قلة العلم .

ولهذا لم يخل كتاب من كتب الحديث المصنفة على الأبواب من أفراد كتاب
للعلم ، كما في الصحيحين والسنن ، وغيرها (كالمستدرک ومجمع الزوائد) .

وكان أول كتاب من كتب « إحياء علوم الدين » الأربعين هو كتاب العلم .

وأول عقبة يجب أن يقطعها السالك في طريقه إلى الله هي « عقبة العلم »
كما في كتاب « منهاج العابدين » للغزالي أيضاً .

ولقد حذر الربانيون من أئمة السلف - رضى الله عنهم - من الإقبال على
التعبد ، قبل التزود من العلم ، فقال الخليفة الراشد عمر بن العزيز : العامل
على غير علم يُفسد أكثر مما يصلح (٣)

وقال الإمام الحسن البصرى : العامل على غير علم كالسائر على غير طريق ،
والعامل على غير علم ما يُفسد أكثر مما يصلح ، فاطلبوا العلم طلباً لا يضر
بالعبادة ، واطلبوا العبادة طلباً لا يضر بالعلم ، فإن قوماً طلبوا العبادة وتركوا

(٢) فاطر : ٨

(١) الكهف : ١٠٣ - ١٠٤

(٣) ذكره ابن الجوزى فى سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه ص . ٢٥

العلم حتى خرجوا بأسيا فهم على أمة محمد ﷺ ، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا (١) .

يعنى بهؤلاء : الخوارج الذين استحلوا دماء الأمة وأموالها ، وكفروا الناس بالجملة ، برغم أنهم كانوا صوَّاماً قوَّاماً قرَّاءاً للقرآن ، كما وصفهم الحديث : « يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم ، وصيامه إلى صيامهم ، وقراءته إلى قراءتهم » ولكن آفتهم أنهم : « يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم » أى أنهم لم يتعمقوا فى فهمه فانتهى بهم الأمر إلى أنهم « يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان » ! (٢) .

ومن هنا كان لا بد من العلم قبل العمل ، كما قال معاذ - رضى الله عنه - : « العلم إمام العمل ، والعمل تابعه » (٣) .

ولذا قال صلى الله عليه وسلم - وقد ذُكر له رجلان : أحدهما عابد ، والآخر عالم - : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم » (٤) .

إن العلم الشرعى فريضة وضروة للإنسان المسلم ، حتى قال بعض السلف : إن حاجة المرء إلى العلم أشد من حاجته إلى الطعام والشراب . وهذا صحيح ؛ لأنه إذا فقد الطعام والشراب هلك بدنه ، وإذا فقد العلم هلك روحه . وأين من خسر الحياة الفانية من خسر الحياة الأبدية الباقية ؟!

وضروة الإنسان المسلم للعلم تتمثل فيما يلى :

(أ) فهو الوسيلة الفذة لتمييز الحق من الباطل فى العقائد ، والصواب من الخطأ فى الأفكار . وذلك بما يضعه من أصول وضوابط ، لاستقامة الفهم ، وصحة الاستدلال .

(١) ذكره ابن القيم فى مفتاح دار السعادة ١ / ٨٣ .

(٢) انظر فى ذلك حديث أبى سعيد الخدرى المتفق عليه « اللؤلؤ والمرجان » حديث ٦٣٩ وما بعده .

(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية وابن عبد البر فى العلم ، وغيرها ، ورفعه بعضهم ، والصواب وقفه .

(٤) رواه الترمذى عن أبى أمامة وقال : حسن صحيح غريب (٢٦٨٦) ط . حصص .

(ب) وهو الوسيلة الفذة لتمييز المشروع من غير المشروع فى الأعمال . أى تمييز الحلال من الحرام فى الأشياء والتصرفات ، والمسنون من المبتدع فى الثُّرَبات والعبادات ، والحسن من القبيح فى الأخلاق والسلوك ، وهو الذى يضع القواعد والأطر الضابطة لذلك كله .

(ج) وهو الوسيلة الفذة لإعطاء الأعمال والتكاليف مراتبها الشرعية الصحيحة ، ففى المأمورات يقول : هذا مُسْتَحَب ، أو واجب أو فرض ، وهو فرض عين أو فرض كفاية ، وهو فرض عادى أو فرض مؤكد مثل أركان الإسلام .. وفى المنهيات يقول : هو مكروه أو مشتبه فيه ، أو حرام ، وفى الحرام : هو صغيرة أو كبيرة ، أو من أكبر الكبائر .

(د) - ثم هو الوسيلة الفذة للحكم العادل على الأفراد والجماعات ، وتقويم المواقف والأحداث تقويماً سليماً ، بعيداً عن الشطط والهوى ، وعن الإفراط والتفريط .

* * *

● لماذا عبّر الأستاذ بـ « الفهم » بدل « العلم » ؟

وإنما عبّر الأستاذ البنا عن « العلم » بـ « الفهم » لأنه المقصود من العلم ، فليس العلم بكثرة الرواية بقدر ما هو عمق الدراية ، ولهذا علّق القرآن والسنة الخبير « بالتحفة فى الدين » لا بمجرد « تعلم الدين » .

يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَكِيِّنَدِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١) .

ويقول الرسول ﷺ : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » (٢) . والفقه

(٢) متفق عليه من حديث معاوية .

(١) التوبة : ١٢٢

أخص من العلم ، فهو يعنى الفهم بل الفهم الدقيق ، الذى ينفذ إلى اللباب ، ولا يكتفى بالقشور وهو الذى يُنير العقل ، ويُحيى القلب (١) .

* * *

● صحة الفهم من أعظم النعم :

يقول العلامة ابن القيم فى شرح ما جاء فى « كتاب عمر فى القضاء » عند قوله : الفهم الفهم فيما أدلى إليك : « صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التى أنعم بها على عبده ، بل ما أعطى عبداً عطاءً بعد الإسلام أفضل ولا أجلّ منهما ، بل هما ساقا الإسلام ، وقيامه عليهما ، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم ، وطريق الضالين الذين فسدت فهمهم ، وبصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم ، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم فى كل صلاة ، وصحة الفهم نور يقذفه الله فى قلب العبد ، يميز به بين الصحيح والفساد ، والحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغى والرشاد ، ويمدده حسن القصد ، وتحرى الحق ، وتقوى الرب فى السر والعلانية ، ويقطع مادته اتباع الهوى ، وإيثار الدنيا ، وطلب محمدة الخلق ، وترك التقوى » (٢) .

وقد روى الإمام البخارى فى صحيحه عن على رضى الله عنه وكرم الله وجهه أنه سئل : هل خصكم رسول الله ﷺ بشئ ؟ . قال : لا ، إلا فهماً يؤتاه عبد فى كتاب الله ، وما فى هذه الصحيفة .. وأخرج صحيفة فيها بعض الأحكام ..

(١) بين الإمام الغزالي فى كتاب « العلم » من « الإحياء » أن كلمة « الفقه » من الكلمات التى بدلت معانيها عما تدل عليه فى القرآن والسنة ، وعما كان يفهمه منها الصحابة وسلف الأمة .

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم ج ١ ص ٨٧ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

فالفهم عن الله ورسوله من أعظم النعم .
وشر ما يصاب به إنسان عدم الفهم عن الله ورسوله .
وشر منه أن يفهم عن الله ورسوله عكس ما يريدانه ، فيحرف الكلم عن مواضعه . وهذه أسوأ الآفات .

* * *

● لماذا نعى بشرح هذه الأصول ؟

وسؤال آخر قد يعرض لبعض الناس ، بل قالوه .
قالوا : لم كل هذه العناية بهذه الأصول ؟ وهل هي من كلام الله تبارك وتعالى ، أو من كلام رسوله ﷺ ، حتى تتناولوه بالشرح والتفسير والتحليل ؟
وبعبارة أخرى : هل تعتبرون إمامكم من أهل العصمة ؟
هل كان حسن البنا معصوماً ؟
لا ، والله ، لم يدع ذلك يوماً ، ولم يدعه له أحد من أصحابه وتلاميذه ،
برغم فرط حبهم له ، وإعجابهم به ، وثنائهم عليه .
كيف وهو الذى جعل أحد أصوله العشرين : أن كل واحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا النبى ﷺ ؟ (الأصل السادس) .

فلماذا - إذن - نعى بكلامه ونشرجه ؟ حتى قال بعض الناس : هل هو قرآن أو حديث حتى تشرحوه ؟!

وقائل هذا قليل البضاعة من العلم بالدين والتراث والحياة . فليس القرآن وحده هو الذى يُفسر ، ولا الحديث وحده هو الذى يُشرح ، فكم من كتب ألفها بشر غير معصومين ، كتبت عليها الشروح المختصرة ، والوسيطه ، والمطوَّلة ، وكتبت على الشروح حواش ، وعلى الحواشى تقارير وإفادات .

وهذا فى كل العلوم : الدينية وغير الدينية ...

فى علم العقيدة نجد : شرح « الفقه الأكبر » للإمام أبى حنيفة ، وشرح العقيدة الطحاوية ، وشرح العقيدة الواسطية ، وشرح السنوسية ، والعقائد النسفية ، والجوهرة ، وغيرها ..

وكنا - ونحن طلبة فى كلية أصول الدين بالأزهر - ندرس « العقائد النسفية » وعليها شرح للعلامة سعد الدين التفتازانى ، وعلى الشرح ثلاث حواش ، لكل من : الخيالى ، والعصام الاسفرايينى ، وعبد الحكيم السيكالكوئى .

وفى الفقه : عُرِفَت المتون الشهيرة فى المذاهب ، مثل « الكنز » و « الهداية » عند الحنفية ، و « الرسالة » و « مختصر خليل » عند المالكية و « المنهاج » و « أبى شجاع » عند الشافعية ، و « الإقناع » و « المنتهى » و « الزاد » عند الحنابلة ، وكلها حظيت بشروح متعددة ، مختصرة ومطوّلة ومتوسطة .

وفى الأصول : عُرِفَت « وركات » إمام الحرمين ، ومنهاج البيضاوى ، ومسلم الثبوت ، ومختصر ابن الحاجب ، وتوضيح صدر الشريعة ، وغيرها .

وفى علوم الحديث : عُرِفَت مقدمة ابن الصلاح وشروحها ، وتقريب النواوى ، ونخبة ابن حجر .. إلخ .

وفى التصوف : عُرِفَت حكم ابن عطاء وشروحها ، بل وضع العلامة الزبيدى شرحاً على « إحياء علوم الدين » على سعته .

وفى اللغة وعلومها من النحو والصرف والبلاغة نجد متوناً وشروحاً وحواشى معروفة للدارسين . حتى إن العلامة المرتضى الزبيدى شرح « القاموس » شرحه الضخم المعروف « تاج العروس » .

فلا غرابة - إذن - فى شرح هذه الأصول التى وضعها حسن البنا ، لتكون أساساً لوحدة الفهم عند العاملين للإسلام ، وحرص على أن تكون موجزة كل

الإيجاز ، مركزة كل التركيز ، بحيث يسهل هضمها وحفظها . فهي أشبه بـ « المتون » فى علم الفقه وغيره من العلوم الإسلامية . والمتون دائماً تحتاج إلى شروح توضّح مراميها ، وتكمل ما سكتت عنه ، وتستدل لما ذكرته من أحكام وقضايا .

* * *

● لمن كتب حسن البنا هذه الأصول ؟

وسؤال ثالث قد يُسأل هنا ، وهو : لمن كتب حسن البنا هذه الأصول العشرين؟ ومن هو المعنى بخطابه هنا من أصناف الناس ؟
ومن الواضح أنه خاطب بهذه الأصول صنفين :

الأول : الإخوان العاملين أو المجاهدين من جماعة « الإخوان المسلمين » . فمن المعلوم أن « الإخوان » هيئة عامة ، قامت لتجديد الإسلام فى عقول المسلمين ونفوسهم وحياتهم : اعتقاداً وفكراً وخُلُقاً وسلوكاً . وقد ضمت فى صفوفها ألواناً مختلفة من الناس ، منهم السكفى ، ومنهم الصوفى ، منهم المتمسك بمذهبه ، ومنهم لا يرى التمهذب . منهم المحافظ الميال إلى القديم ، ومنهم المتحرر الميال إلى الجديد . منهم المثقف بالثقافة الشرعية ، ومنهم المثقف بالثقافة المدنية .. إلخ .

وهذه الأمزجة والاتجاهات المختلفة تحتاج إلى « قواسم مشتركة » فى الفكر ، تجمع بينها ، على اختلاف نزعاتها ، وتوحد مفاهيمها الأساسية فى القضايا الكلية ، والمسائل الدينية الكبرى ، وإن بقى بعض الاختلاف فى الفرعيات والتفصيلات التى يتعذر أن يتفق الناس عليها .

الصنف الثانى : يتمثل فى الجماعات والفئات الدينية المختلفة ، التى كانت تضمها الساحة المصرية ، يوم كتب الإمام البنا هذه الأصول ، وهى شبيهة إلى

حد كبير بما نحن عليه اليوم ، وقديماً قال الشاعر العريى : ما أشبه الليلة
بالبارحة ! وقال مَنْ قال من الغربيين : التاريخ يعيد نفسه !

ومهما اختلف الناس فى صدق هذه المقولة ، فإن مما لا يُجحد أن كثيراً من
المواقف والأوضاع قد تتكرر أو تتشابه إلى حد بعيد .

أجلٌ .. كانت عين حسن البنا - رضى الله عنه - وهو يكتب هذه الأصول
العشرين - مركزة على الجماعات الدينية المختلف بعضها مع بعض ، التى
تبادل التجريح والاتهام ، إلى حد التفسير بل التكفير .

وقد رأى ذلك بعينى رأسه ، ولمس آثاره براحتيه ، فمنذ بزغ فجر دعوته
بمدينة الإسماعيلية ، حيث الجماعات الدينية ذات الاتجاه السلفى أو السننى تمثل
اتجاهاً ، وهى فيما بينها تتراشق التهم ، ثم الجماعات الصوفية بطرقها
ومشايعها وأتباعها وشاراتها ، تمثل اتجاهاً آخر ، معادياً ومناقضاً للاتجاه الأول ،
وبينهما حرب جدلية لا يخمد أوارها .

ثم هناك العلماء والوعاظ والخطباء الذين لا ينتمون لأحد المعسكرين ، والذين
لا يعجبون أولئك ولا هؤلاء ، ولا يعجبهم أيضاً أولئك ولا هؤلاء .

كان هذا ما رآه ولمسه حسن البنا فى الإسماعيلية ، ثم ما رآه بعد ذلك فى
القاهرة - بصورة أكبر - بين الاتجاهات الدينية المختلفة .

ولما كان الرجل مشغول الفكر والقلب بتوحيد الأمة المسلمة ، التى فرقتها
الخلافات من كل جانب ، حتى قاتل بعضها بعضاً فى أيام الحرب العالمية
الأولى ، وقد سقطت آخر راية كانت تجمع أمة الإسلام تحت ظل العقيدة ، وهى
راية الخلافة سنة ١٩٢٤ ، وبرزت النزعات القومية والوطنية ، بديلاً للوحدة
الإسلامية ، والقومية الإسلامية .

لهذا كان من المهم - بل من الضرورى - توحيد الجبهة الداخلية الإسلامية
بكل وسيلة ممكنة : جبهة الداعين إلى الإسلام ، والرافعين لشعاراته المتنوعة

والعمل على تضييق دائرة الخلافات الدينية والفكرية بينهم ، وجمعهم على «الحد الأدنى» من الأصول والمفاهيم الإسلامية التي تُوحّد ولا تُفرّق ، وتُقرّب ولا تُباعِد .

وحين أنشئ اتحاد للجماعات الدينية فى مصر ، أو حين أريد انشاؤه تقدّم الشهيد بهذه الأصول المركّزة ، لتكون محوراً تلتقى عليه هذه الجماعات المختلفة .

* * *

● من مزايا هذه الأصول :

ومن هنا نلاحظ فى هذه الأصول عدة أمور :

أولاً : أنها تتجه غالباً إلى المسائل التى تختلف فيها وجهات النظر ، بين المدارس الدينية قديماً وحديثاً ، كالخلاف بين السلف والخلف من المتكلمين ، والخلاف بين الاتجاه الصوفى والاتجاه السلفى ، والخلاف بين أنصار التقليد المذهبى و « اللامذهبيين » ..

ثانياً : أنها مصوغة بحكمة واعتدال ، بحيث يمكن أن يلتقى عليها العقلاء من أتباع هذه المدارس ، إذا توافر القدر الضرورى من الفهم والإخلاص والتسامح .

ثالثاً : أنه قصد فيها إلى التركيز والإيجاز ، لا إلى الشرح والتفصيل ، لأن التوسع والتفصيل فى هذه الأمور ، يتيح فرصة أكبر للخلاف ، وتعدد الآراء وتضاربها وهو عكس المقصود .

رابعاً : أنها لم تعن كثيراً بالتوجه إلى العلمانيين والمثقفين ثقافة غربية ، ولو كان ذلك من قصدها واهتمامها ، لأضافت إلى هذه الأصول أصولاً أخرى .

ولهذا حين أردتُ أن أقدم معالم الإسلام لهؤلاء فى كتابى « الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه » ذكرتُ ثمانية عشر معلماً ، أو أصلاً ، ذات مضمون

آخر ، ووجهة أخرى (١) ، وأعتقد أنه لو كان الإمام الشهيد مكانى لفعل مثل ما فعلت ، ولكل مقام مقال .

وأود أن أقول كلمة هنا عن اتجاه التوحيد والتجميع والتوفيق بين المختلفين ، الذى تميّزت به صياغة الإمام الشهيد لهذه الأصول .

* * *

● اتجاه التجميع والتوفيق :

ولا ريب أن الاتجاه التوحيدى والتوفيقى ، فى هذه الأصول واضح ، كل الوضوح ، وحينما بدأت أكتب فى شرح هذه الأصول ، وعلى الأصح أنشر بعض ما كان عندى من شرحها ، عندما بدأت مجلة « الدعوة » فى الظهور فى أوائل السبعينات بإشراف المرشد الثالث الأستاذ عمر التلمسانى - رحمه الله - ، جعلت لها عنواناً أساسياً ثابتاً ، هو : « نحو وحدة فكرية إسلامية » ، ومن توفيق الله لنا أن شيخنا الغزالي - حفظه الله ومدّ فى عمره فى خدمة الإسلام - لحظ هذا الملحظ نفسه ، فسمى كتابه الذى شرح فيه هذه الأصول العشرين « دستور الوحدة الثقافية للمسلمين » .

وقد كان التكوين العقلى والنفسى لحسن البنا يتجه إلى البناء لا الهدم ، وإلى الجمع لا التفريق .

وهذا هو السر فى أن الإمام حسن البنا لم يفصل فى بعض الأمور ، وتركها لكل فريق يرى فيها رأيه ، حسبما يلوح له من الأدلة ، كما فى موضوع « التوسل » بالنبي ﷺ أو بالصالحين .

فبعد أن أكد ضرورة أن يكون المدعو والمتوسل إليه هو الله تبارك وتعالى ذكر أن قضية التوسل (بجاه النبى ونحوه) تدخل فى مسائل « الفروع العملية » التى يبحث فيها علم « الفقه » وليست من « الأصول العقائدية » التى يبحث

(١) انظر : كتابنا « الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه » ص ٣٦ - ٤٧ ط . دار الصحوة بالقاهرة .

فيها علم « التوحيد » لأنها تتعلق بالخلاف في كيفية الدعاء ، فتخرج بذلك من العقيدة إلى العمل .

وبعض المتحمسين لوجهة معينة يعيبون على الشيخ - رحمه الله - أنه لم يحسم في هذا الأمر ، برأى قاطع ، وذلك لأنهم ينظرون من زاوية غير زاويته ، ويسعون إلى هدف غير هدفه ، ويسلكون سبلاً غير سبيله .

فالرجل يريد أن يجمع الأمة على الأهداف الكبرى ، وأن يحشد صفوفها - على اختلاف وجهاتها - في مقابلة القوى المعادية للإسلام جهراً ، والمتريضة به سراً ، ويحرص على أن تتناسى الخلافات الجزئية فيما بينها لتقف أمام أعدائها صفاً كأنهم بنيان مرصوص .

وليس معنى هذا أن يتنازل عن أساسيات الإسلام ، فهذا غير وارد في هذا المقام بحال من الأحوال .

ولهذا أنكر ادعاء الكشف والإلهام والرؤى ، واعتبارها مصدراً للأحكام والسلوك ، وأنكر الخرافات والشركيات المتعلقة بالتمائم والرُقى والكهانة وزيارة القبور والغلو في الأولياء والكرامات ونحوها .

كما أنكر الابتداع في الدين ، وشرع ما لم يأذن به الله .. إلخ .. ودعا إلى التمسك بالكتاب والسنة ، والرجوع إليهما في معرفة أحكام الإسلام .

فالتجميع والتوفيق الذي حرص عليه الإمام البنا إنما هو في الأمور التي تتعدد فيها الاجتهادات وتختلف فيها وجهات النظر ، فلا بأس من تركها دون حسم .

وهذا هو شأن الراسخين من أهل العلم ، الذين كثيراً ما يُسألون فيقولون : لا ندرى ، أو يذكرون أقوال أهل العلم قبلهم واختلافهم فيها ، ولا يرجحون قولاً على قول .

وقد روى هذا عن الإمام الشافعى رضى الله عنه فى عدد من المسائل ،
وعقّب على ذلك الإمام الرازى فى « المحصول » فقال : هذا يدل على كمال
منصبه فى العلم والدين .

« أما العلم - فلأن كل من كان أغوص نظراً ، وأدق فكراً ، وأكثر إحاطة
بالأصول والفروع ، وأتم وقوفاً على شرائط الأدلة : كانت الإشكالات عنده
أكثر .

أما المصّر على الوجه الواحد - طول عمره - فى المباحث الظنية بحيث
لا يتردد فيه : فذلك لا يكون إلا من جمود الطبع ، وقلة الفطنة ، وكلال
القريحة ، وعدم الوقوف على شرائط الأدلة والاعتراضات .
وأما الدين - فمن وجهين - :

الأول : أنه لما لم يظهر له فيه وجه الرجحان : لم يستح من الاعتراف بعدم
العلم ، ولم يشتغل بالترويج والمداهنة ، بل صرح بعجزه عما هو عاجز فيه .
وذلك لا يصدر إلا عن الدين المتين .

كيف - وقد نُقل عن عمر - رضى الله عنه - اعترافه بعدم العلم ، فى كثير
من المسائل ^(١) . وجميع المسلمين عدواً ذلك من مناقبه وقضائمه ، فكيف جعلوه
عيباً ههنا ؟

والثانى : وهو أنه - رضى الله عنه - لم يقل ابتداءً : « إنى لا أعرف هذه
المسألة » بل وجد المسألة واقعة بين أصليين ، فذكر وجه وقوعها بينهما ، وكيفية
اشتباهاها بهما . ثم لما لم يظهر له الرجحان - تركها على تلك الحالة ليكون ذلك
بعثاً له على الفكر بعد ذلك ، وحشاً لغيره من المجتهدين على طلب الترجيح .

(١) نحو هذا روى عن سيدنا عمر - رضى الله عنه - فى مواضع كثيرة ، منها ما يتعلق بميراث
الجد والإخوة ، وميراث الكلالة ، وبعض أبواب الربا ، وقد أخرج ذلك عنه البخارى ومسلم
وغيرهما . وانظر سنن البيهقى : (٦ / ٢٤٥) ، وفتح القريب (١ / ٣٩) .

وهذا هو اللائق بالدين المتين ، والعقل الرصين ، والعلم الكامل .. بل مَنْ أنصف واعترف بالحق : علم أن ذلك مما يدل على رجحان حاله ، على حال سائر المجتهدين : فى العلم والدين (١) .

وما لاحظته الإمام البنا منذ نحو نصف قرن - من الحاجة إلى التجميع والتوفيق - لا زلنا نلاحظه إلى اليوم .

ففى البلاد التى زرتها داخل العالم الإسلامى ، وفى الجاليات والتجمعات الإسلامية التى التقيتُ بها خارج العالم الإسلامى ، وفى المؤتمرات والندوات التى شاركتُ فيها فى أقطار شتى فى المشرق والمغرب - كان هناك سؤال مشترك يتكرر ويلح ويضغط علينا . نحن الداعين للإسلام ، والمنتمين إلى الجماعات والحركات الإسلامية .

هذا السؤال يقول : لماذا يظل الخلاف قائماً بين الجماعات الإسلامية ؟ ولماذا لا تتوحد كلها فى جماعة أو حركة إسلامية عالمية كبرى ، بدل هذه الجماعات المتفرقة المتناثرة ؟! إن الاتحاد يقوى القلة ، والاختلاف يضعف الكثرة ! ولماذا الاختلاف بينها ؟ أليست كلها تعمل لنصرة الإسلام ، وإقامة دولة الإسلام ؟! أو ليس الإسلام هدف الجميع ، ومنطلق الجميع ؟ فلماذا يتفرون ولا يجتمعون؟ ولماذا يختلفون ولا يتوحدون ؟

وكم تمنى دعاة مخلصون أن تقوم فى عصرنا حركة إسلامية عالمية واحدة ، تضم كل الحركات ، وتستوعب كل الطاقات ، فتكون أقدر على التصدى لتكتلات القوى المعادية ، ومؤامرات الصهيونية ، والصليبية ، والشيعوية والوثنية ، التى قد تختلف فيما بينها وتتفق علينا .

(١) المحصول فى علم أصول الفقه للإمام فخر الدين الرازى - تحقيق د . طه جابر العلوانى

ج ٢ - قسم ٢ ص ٥٢٧ ، ٥٢٨

ومما لا يخفى على دارس أن هناك عقبات جمة تقف فى سبيل هذه الوحدة المرغوبة .
فالوحدة تقتضى الاتفاق على الأهداف ، وعلى ترتيبها .
ثم على المناهج والوسائل التى تُتخذ لتحقيق الأهداف المنشودة .
ثم على القيادة والثقة بإخلاصها ، وكفايتها ، وقدرتها على استخدام تلك
الوسائل لتحقيق تلك الأهداف .

وهذا ليس من اليسير أن يتوافر إلا داخل الجماعة الواحدة .
ولهذا أرى أن الحلم بالحركة التى تستوعب كل الحركات ، أو الجماعة التى
تضم كل الجماعات - حلم جميل ، ولكنه - بمنطق الواقع - بعيد التحقيق .

واعتمادى الذى سجلته فى أكثر من كتاب : أنه ليس من الضرورى توحيد
الجماعات الإسلامية ، وصبها فى قالب واحد . بل يكفى التقريب بينها ، وإزالة
أسباب التنافر والتناكر بين بعضها وبعض ، والعمل على أن يكون بينها قدر من
التنسيق والتفاهم والتعاون . بحيث يكمل بعضها بعضاً ، وبحيث تقف فى
القضايا الكبيرة جبهة واحدة ، كالبنيان المرصوص . وبهذا يكون اختلافها
اختلاف تنوع وثناء ، لا اختلاف تناقض وصراع .

ومما يعين على هذا التقارب والتفاهم والتعاون ما ذكرناه من ضرورة توفير
« حد أدنى » من « المفاهيم المشتركة » التى تجمع بين المتفرقين ، وتقارب بين
المتباعدين ، وتوثق الصلة بين المتقاربين . وهذا ما يمكن أن تؤديه هذه الأصول
إلى حد كبير .

* * *